صور من العصر العباسي :

القرية الفضـــــية...

للأستاذ صلاح الدين المنجد

هذه القرية ، هي إحدى عجائب العصر العباسي في بغداد . وما أكثر ما كان في زمن العباسيين من عجائب ! وكانت قرية من فضة ، وفيها كل ما تجد في القرى من بقر ، وغنم ، وجمال ، وجواميس ، وأشجار ، ونباتات ، ومساح ، وناس ، وكل ذلك قد صنع بأدق صنعة من الفضة ، وأنفق عليه آلاف من الدراهم .

وكانت هذه القرية قد صنعت للخليفة المقتدر ، ليرى كيف تكون القرى ، وأغلب الظن أنه اشتهى رؤية قرية فصنعت هذه له .

وقد نعجب بالحضارة الإسلامية التي بلغت في القرن الرابع نضجها فأبدعت أشباه هذه الأشياء . وقد يدهشنا ما أنفق هذا الخليفة من الأموال ، لتصنع له هذه القرية ، ولكن الذي يدعو إلى العجب والدهشة معاً ، قصة هذه القرية ، وأثر النساء في مصيرها .

وهذه القصة جديرة بأن تكون خاتمة لمقالي السابق عن حكومة النساء لدى الخلفاء في زمن بني العباس .

ذلك بأن أم المقتدر ، — وكان لها من الشأن ما علمت — كان لها داية تخدمها تسمى « نظم » وكانت نظم بارعة ذكية ، فما زالت حتى صارت من قهارمها ، وصارت تجري على يديها الكبير من الأمور والصغير ، وكانت نظم ترغب في رجل اسمه أبو القاسم يوسف بن يحيى ، فرفعته ، وانتهت به إلى أسنى الأرزاق وأوسع الأحوال ، وقربت بينه وبين السيدة حتى أخرجت له الصلات ، فتأثلت حاله ، وصار صاحب عشرات ألوف من الدنانير ثم خلطته بخدمة السيدة الأم ، فزاد منها تقرباً .

وعزم أبو القاسم هذا ، على تطهير ابنه يوماً ، فأعد لوليمة الختان عدة كبيرة ، وأنفق على ذلك ما لم يسمع أن فعل مثله رجل من الحاشية ، حتى إنه لكثرة ما ابتاع من الحاجات أفرد عدة دور للحيوان ، وعدة دور للفاكهة ، وبلغ « نظم » خبره ، فسمت عند السيدة الأم وجاءته من عندها بالأموال والفرش والآنية والثياب والمخروط (وهو نوع من الزجاج) ، فلما مضت أيام سألت السيدة نظما : يا نظم إيش خبر طهر ابن يوسف ؟ قالت : يا ستي قد بقيت عليه أشياء يريدها ، فقالت : خذي ما تريدين واحمليه إليه ، فجاءت نظم إليه فقالت : إن كان قد بقي في نفسك شيء ، فعرفني . فقال لها : الختان غداً ، وما بقي في نفسي شيء إلا وقد بلغته بك ، وقد بقي في نفسي شيء لست أجسر على مسألته. قالت : قل ما في نفسك . قال : أشتهي إعارة القرية الفضية التي عملت لأمير المؤمنين ليراها الناس في داري ، ويشاهدوا ما لم يشاهدوا مثله ، فيعلموا ما لي من الإختصاص والعناية . فوجمت ، وقالت هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ، ومقداره عظيم ، وفي هذه القرية مئات الألوف من الدراهم ، ولا أحسب جاهي يبلغ إليها . وكيف يستعار من خليفة شيء ؟ ومتى سمع بخليفة يعير ؟ ولكن أنا أسأل السيدة . ومضت .

قال أبو القاسم : فلما كان الليل جاءتني ، فقلت ما الخبر ؟ فقالت كل ما تحب ، قد جئتك بالقرية هبة لا عارية ، وجئتك معها بصلة ابتدأ بها أمير المؤمنين من غير مسألة أحد . فقلت ما الخبر ؟ قالت : مضيت وأنا منكسرة القلب ، آيسة من أن يتم هذا . فدخلت على السيدة ، على هيئتي تلك . فقالت من أين ؟ قلت من عند عبدك يوسف ، وهو على أن يطهر ابنه غداً . قالت أراك منكسرة ، قلت : بيقائك ما أنا منكسرة . قالت : في وجهك حديث ، فقلت : خير ، قالت : بحياتي عليك ، ماذاك ؟ قلت : قد شكر ما عومل به ودعا وقال إني كنت أحب أن أتشرف بما لم يتشرف به أحد قبلي ليعلم موضعي من الخدمة . قالت : وماهو؟ قلت : يسأل أن يعار القرية ليتجمل بها ، ويردها من غد . فأمسكت . ثم قالت : هذا شيء عمله الخليفة لنفسه ، كيف يحسن أن يرى في دار غيره ؟ وكيف يحسن أن يقال إن الخليفة استعار منه بعض خدمه شيئاً ثم استرده منه ، وهذا فضيحة . وليس يجوز أن أسأله هبتها له لأني لا أدري إن كان قد ملها وشبع منها أم لا ؟ فإن كان قد ملها فقيمتها عليه هينة . وإن كان لم يملها لم أرض أن أجمعه بها ، وسأسبر ما عنده في هذا .

ثم دعت بجارية فقالت : اعرفوا خبر الخليفة ، فقيل لها هو
ـد فلانة ، فقالت (أى لنظم) تعالى معى ، فقامت ، وأنا معها
دة جوار حتى دخلت ، وكانت عادته إذا رآها أن يقوم لها قائماً ،
ـانقها ، ويقبل رأسها ، ويجلسها معه فى دسته (قالت نظم) :
ـن رآها قام وأجلسها معه ، وقال : يا ستى — وهكذا كان
ـاطبها — ليس هذا من أوقات تفضلك وزيارتك ! فقالت : ليس
ـ أوقاتى . ثم حدثته ساعة ، وقالت : يا نظم متى عزم ابنك
ـسف (!) على تطهير ابنه ؟ قلت . غداً . فقال الخليفة : إن
ـن يحتاج إلى شىء آخر أمرت به . فقالت : هو مستكف داع ،
ـكن قد التمس شيئاً ما أستحسن خطابك فيه . قال أريد أن
ـرف على أهل المملكة كلهم ، ويرى عندى ما لم ير فى العالم
ـله . قال : وما هو ؟ قالت : يا سيدى يلتمس أن تعيره القرية ،
ـا رآها الناس عنده ارتجت . فقال يا ستى ، والله هذه ظريفة !
ـتعير خادم لناحيتنا ، وتكونين أنت شفيعة ، فأعيره ثم أرتجعه ،
ـا من عمل العوام لا الخلفاء . ولكن إذا كان محله من رأيك ،
ـا ، حتى قد حملت على نفسك بخطابى وتجشمت زيارتى ، وأنا
ـم أنه ليس من أوقات الزيارة ، فقد وهبت له القرية ، فرى
ـملها بجميع آلاتها إليه ، وقد رأيت أن أشرفه بشىء آخر ،
ـمل إليه غداً جميع وظائفنا ، ولا يطبخ لنا شىء البتة ، بل يرسل
ـه ، ويؤخذ لنا سمك طرى فقط .

وأمرت السيدة بنقل القرية ، فتملكها أبو القاسم (١).

* * *

فهذه قصة بسيطة ، على أن فيها كثيراً من حياة القصر
ـن المقتدر ، وهى تبين لنا طرق الكلام ، والمحادثة ، وطرق
ـر النساء على الخليفة ، وطرق تبذير الأموال . على أن أعظم
ـه الأشياء كلها ، هو تأثير نظم والسيدة فى الخليفة ، وانقياد
ـا الخليفة للنساء ، وتركه الأمور لهن يصرفنها كيفما شئن
ـردن .

دمنق صلاح الدين المنجد

(١) : انظر هذه القصة فى المنتظم لابن الجوزى ص ٧٤ ج ٦
طبعة الهند)

حَوّاءُ الخالِدَة

تأليف

محمـــود تيمور

قصة المرأة اللعوب العابثة

بقلوب الرجال

صدرت وتطلب من الناشر

دار ســـعد مصر

للطباعة والنشر

بشارع الفجالة رقم ٧٢ بالقاهرة ت ٤١٤٥٥

الثمن ٢٥ قرشاً

تحت الطبع للمؤلف

كليوبـــترا

فى

خان الخليـــلى

قصة عصرية مبتكرة

وحى الحرب فى عمل فنى